

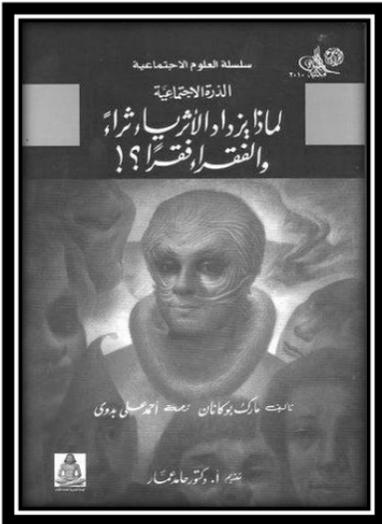
الإنسان والكمبيوتر وجهًا لوجه!

دراسة المشكلات الحياتية وسلوكيات الناس اليومية توضح الكثير من خبايا وأسرار التفكير البشري المعقد، فأشكال الانفلات الاجتماعي كمشاهدة سائقين يكسرون إشارة المرور، أو موظفين فاسدين يعتمدون على الرشوة والاحتيال، أو تصرفات رجال أمن يستغلون وظيفتهم لقمهر المواطنين، كل تلك السلوكيات الخاطئة ناتجة من تفاعلات وأنماط مجتمعية خاطئة، ولا بد من إيجاد حلول لها في إطار من التوافق الاجتماعي القائم، وفي المقابل فإن تنمية الأفكار الابتكارية والسلوكيات الصحيحة مثل الحملات التطوعية وتطوير التعليم وتنشيط الاقتصاد أو نشر الثقافة يساهم في زيادة التماسك الاجتماعي.

لقد بذل العلماء والمخترعون جهدًا كبيرًا في جعل الكمبيوتر يقوم بالكثير من وظائف الإنسان بكفاءة، فهل تنجح العملية العكسية بجعل الإنسان كالحاسب الآلي تحكمه قوانين صارمة وأنظمة وبرمجيات توجه تفكيره وسلوكه وتحكم تصرفاته؟!.

ويعد كتاب "الذرة الاجتماعية.. لماذا يزداد الأثرياء ثراءً والفقراء فقراً" للعالم والمفكر الكبير مارك بوكانان، من الكتب الرائدة في مجال العلم الاجتماعي، والفكرة العامة التي ينادي بها الكتاب هي أن الناس عبارة عن ذرات في مادة اجتماعية، يمكن أن تتيح تفسير كثير من الأنماط، التي تنبعث مرة تلو أخرى في جميع المجتمعات الإنسانية. ويتمثل هذا في نشوء الطبقات الاجتماعية، والتدفق الجائر الذي يتسم به حلول الثروة في أيدي القلة.

وقد صدر الكتاب في طبعتين؛ الطبعة الأولى عن الدار المصرية اللبنانية، ولأهمية الكتاب قام مشروع مكتبة الأسرة بإعادة طباعته في طبعة شعبية عام ٢٠١٠، وذلك بترجمة رائعة لأحمد على بدوي، وتقديم متميز للخبير الاجتماعي والتربوي الراحل الأستاذ الدكتور حامد عمار.



قد يعتقد الكثيرون أن الكتاب ما هو إلا تنظير اجتماعي لا علاقة له بالواقع المعاش، لأن فكرته تبدو وكأنها تبحث عن يوتوبيا أو مدينة فاضلة إنسانية من خلال التوصل لقوانين صارمة تحكم البشر. لكن المؤلف يؤكد أن كتابه منغمس في المشكلات الحياتية لأغلب الناس، فهو يناقش الثروة والسلطة

السياسية وأحقاد الطبقات والتمييز العنصري، والأزدياء وأعمال

الشغب والأسواق المالية، وهو يتناول المفاجآت الاجتماعية: تلك الأحداث والتغيرات التي تطرأ دون أن ينشئها شيء، وتبدل في حياتنا، وعن تفسير تقصيرنا هذا عن إدراك أسبابها، والواضح من ردود أفعالنا تجاهها.



ومن الإشارات الواردة بالكتاب الحديث عن مايسي "الفيزياء الاجتماعية"، فعلم الفيزياء يبذل جهداً كبيراً لفهم الكيفية التي تتجمع بها الذرات مع بعضها البعض، وتكون جميع المواد التي نعرفها: بعضها لزج والبعض الآخر منفلت (كالزئبق)؛ بعضها موصل للكهرباء وغيره ليس كذلك، فالماسات لا تضي بريقها، لأن الذرات تجعلها تومض، بل بسبب الكيفية التي بها تكون الذرات معاً نمطاً معيناً، وفي كثير من الأحوال تقل أهمية الأجزاء عن تلك التي للنمط. هذا بشأن المادة، وهو كذلك بشأن الناس.

ويشير المؤلف أيضًا إلى أن الأزمة تكمن في صعوبة التوصل إلى قوانين علمية ثابتة تحكم السلوك البشري، والمقصود بالقانون العلمي هنا يعني إيجاد نمط يصدق وجوده وتطبيقه على حالة تلو أخرى، وبذلك نستطيع فهم طبيعة الأحداث والأفكار الإنسانية كما هو الحال مع طبيعة عمل الأشياء.

ويوضح بوكنان أنه على الرغم من الناس أكثر تعقيدًا من الذرات أو الأحجار، إلا أن الأمل موجود في تحقيق العلم الاجتماعي لنتائج مشابهة للفيزياء. فعليك أولاً أن تفهم طابع الذرات الاجتماعية، ثم تعرف ما يحدث عندما تتفاعل أي من هذه الذرات مع بعضها البعض؛ منشئة عالمًا حافلاً بالأنماط والنواتج الاجتماعية.

يضع المؤلف بالكتاب يديه على أخطر ما يواجهنا عند محاولة التنبؤ بالعالم الإنساني وهو العناد البشري، وكما قال الفيلسوف البريطاني كارل بوبر بأن "ما يتاح للإنسان بفضل حرية إرادته من قدرة من الإتيان بأفعال غير مسبوقه (إبداعًا وابتكارًا وعلماً) يكفي وحده للحيلولة دون أي تكهنات بمستقبل التاريخ الإنساني".

أخذتني فترة تأمل عميقة وأنا أقرأ بالكتاب وأتذكر لحظة مهمة من أهم اللحظات الحاسمة في تاريخ مصر، وهي الفترة التالية على قيام ثورة يناير، فمطالب الثورة وهي "عيش - حرية - عدالة اجتماعية" كانت أساسية لمعظم المصريين، وعلى الرغم من أن فترة الثورة وخلال ثمانية عشر يومًا ظهرت إيجابيات عديدة في سلوكيات المصريين، إلا أن ما بعدها كان مأساة إنسانية وظهرت سلبيات لا حصر لها، وتبدو هنا واضحة فكرة الذرات، فبينما كان

اتحاد الذرات الاجتماعية للشعب المصري وسيلة لتحقيق شيء ملموس حتى وإن كانت المدة قصيرة، في المقابل كان للأنانية السياسية والفرقة والتشتيت بعيدًا عن قضايا الأمة المصرية نتائج بالغة السوء على المسار الوطني.

وهنا نهبني المؤلف إلى مقولة مهمة للمؤرخ الأمريكي (هنري بوكس آدامز) بأن السياسة التي تنسب نفسها للعلم في حل المشاكل والأزمات السياسية والاجتماعية، إنما غالبًا ما تعتمد على التنظيم المتوالي للأحقاد، ورغبة دفينة في الانتقام، بين الفئات والطوائف والمجتمعات، وهكذا يستطيع بعض الأفراد فرض قوة هائلة على التاريخ الإنساني، ليس لأنهم بهذه القوة، أو لأن لهم تأثيرًا سحريًا على الجماهير ((كاريزما))، أو ذكاء خارقًا، بل لأنهم ينجحون في التلاعب بالأنماط والولاء والانتماءات الاجتماعية.



ويؤكد المؤلف على أننا نشهد حاليًا ثورة في مجال العلوم الاجتماعية تشبه كثيرًا "ثورة الكم" في العلوم الفيزيائية، وعلى الرغم أنه لا زال الطريق طويلًا للوصول لقوانين صارمة تحكم العالم البشري، فإن العلماء قد اكتشفوا أنظمة لها صفات القوانين، وهم يقرون الآن بأن هذه الأنظمة لا تتعارض بأي حال من الأحوال مع حرية الإرادة الفردية. فيمكن أن نكون أفرادًا أحرارًا ولكن في الوقت نفسه تؤدي أفعالنا مجتمعة إلى نواتج للمجموع يمكن التكهّن بها. هذا مشابه كثيرًا لما نجده في الفيزياء، حيث تؤدي الفوضى على مستوى الذرات إلى الدقة الفائقة للديناميكا الحرارية أو حركة الكواكب.

ويعطي الكتاب مثالاً عمليًا في مجال الفيزياء الاجتماعية بما أحدثه الحاسب الإلكتروني من طفرة اجتماعية كأداة علمية، فقد عرف العلماء عن طريقه كيف يزيدون من قدرة عقولهم بفضل تكنولوجيا الحساب والمنطق الإلكتروني.

وفي تجربة عملية لما نحتاجه من إعمال العقل الجمعي والتفكير النقدي، تأتي الهند الأبرز في هذا المجال، ففي السبعينات من القرن العشرين قامت حكومة إنديرا غاندي نتيجة لزيادة عدد السكان إلى نحو خمسمائة مليون نسمة، إلى اتخاذ إجراءات صارمة أهمها معسكرات التعقيم، ومن يحجمون عن ذلك يكون مصيرهم الاعتقال والإكراه على الحضور، وكوسيلة إجبارية عملت الشرطة على منع بطاقات تموين الطعام، والعلاج الطبي، وتصاريح قيادة السيارات. وفي إحدى القرى هددت الشرطة بإحراق دكانة أحد المواطنين، ما لم يتقدم لكي تجري له عملية التعقيم اللازمة رغم

أن زوجته تجاوزت سن الحمل!! وفي سنة واحدة تم تعقيم أكثر من ثمانية ملايين من الهنود. وقامت في أعقاب ذلك احتجاجات عنيفة اضطرت الحكومة إلى التخلي عن المشروع وظل عدد سكان الهند يزداد بكثافة.

وفي المقابل حدثت معجزة اجتماعية في إقليم "كيرالا" الهندي دون عنف ولا قهر ولا دعاية، فقد حقق ما فشلت فيه سائربقاع الهند.

فعلى الرغم من أن معظم سكان الإقليم معظمهم مزارعون ويشبه من الناحية الاقتصادية والاجتماعية معظم مناطق الهند الزراعية، إلا أن عدد السكان مستقر ولا يتضاعف كثيرًا.

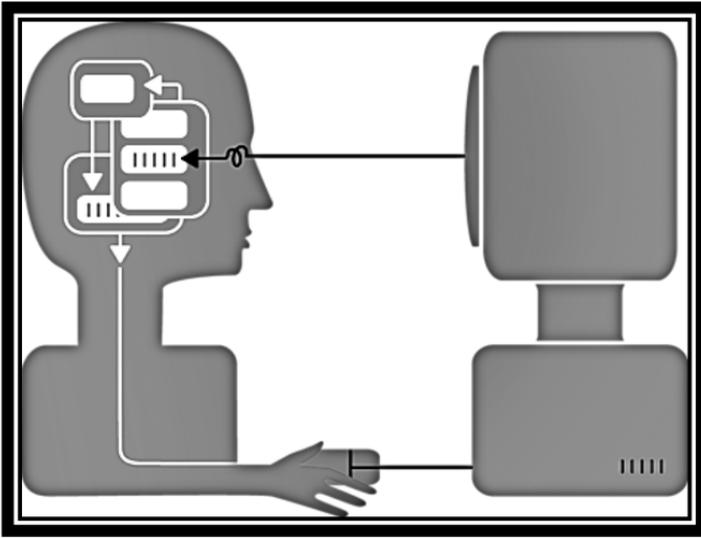
والسرفي ذلك هو "التعليم" فقد قامت حكومة إقليم كيرالا بمجهود جبار لمحو الأمية (القراءة والكتابة والحساب) وتم التركيز بصفة خاصة على تعليم النساء الذي كان بمثابة الرصاصة السحرية التي أفرغت بالون الهواء المنتفخ أي تضخم السكان، وفي أوائل التسعينات من القرن الماضي أعلنت الأمم المتحدة إقليم كيرالا "الولاية الوحيدة في العالم التي بلغت نسبة المتعلمين فيها مئة في المئة".

والنتيجة التي نستخلصها أن الحل الاجتماعي والثقافي نجح في تحقيق التقدم والتنمية وفشل الحل الأمني في ضبط المجتمع وحل المشكلات.

ومثال آخر لما يقوم به العلماء في المجال الاجتماعي يظهر في نظرية "الاختيار العقلاني" لعالم الاقتصاد الأمريكي جاري بيكر، فقد أنفق جزءًا كبيرًا من دراسته لإثبات رأيه في احتمال عدم كون

المجرمين من شواذ المجتمع أو المنحرفين أخلاقياً، فقد يصبح انتهاك القانون هو الحل والخيار الوحيد إذا افتقر الإنسان إلى مهارات يمكنه استثمارها في أعمال مشروعة، وقد حصل بيكر نتيجة لأبحاثه على جائزة نوبل فيما بعد.

ومما يلفت النظر بالكتاب حديث المؤلف عن الموضوعية والانتقائية في التاريخ، فالعالم زاخر بتفاصيل لا حصر لها ولا عدد، وقدرتنا تكمن في الانتقاء من هذه التفاصيل ونظم الأحداث في سياق متصل، فالحقائق التي تصلنا من كتب التاريخ؛ ينم عن انتقائية أولئك الذين كتبوا التاريخ!، ولعل في الأحداث المعاصرة التي يمر بها العالم ما يوضح تلك الانتقائية والازدواجية في رؤية وكتابة الأحداث من وجهة نظر الأقوياء والمستفيدين.



ومن أهم الإشكاليات التي تواجهنا عند محاولة وضع قوانين للعالم الاجتماعي الفروق الفردية، ويشير الكاتب إلى أننا مختلفون بعضنا عن البعض. وهذا يرجع إلى الاختلافات الوراثية، ولأن لكل أمرئ تاريخاً فريداً بما فيه من خبرات وتجارب. فعلى "العلم الإنساني أن يتعامل، لا مع أفراد يكاد مدى ما فهم من التعقيد يكون لا متناهياً فحسب، بل أيضاً مع عديد من أولئك الأفراد؛ يختلف كل منهم عن أي من الآخرين.. في الفيزياء يمكن أن نفترض تماثل جميع الإلكترونات، بينما لا يملك العلماء الاجتماعيون هذا الترف!".

ويبدو التحدي الرئيسي كما يذكر الكتاب في المشاكل التي يواجهها الجنس البشري بدءاً من زيادة درجة حرارة الكون وما يلحق بالبيئة من تدهور، وصولاً إلى مضاعفة الأسلحة النووية وأنواعها. ويبدو ذلك كنتيجة طبيعية لعجزنا عن تدير أنشطتنا الاجتماعية الجماعية.

وتبقي نقطة أخيرة ومهمة يركز عليها الكاتب وهي أن دعوة الناس للتعاون في العمل والإنتاج ليس يسيراً بسبب التهديد الدائم الذي مصدره احتمال الغش والفساد الإداري، ووجود أفراد أنانيين يزنون بمجهودهم، بينما ينالون نصيبهم كاملاً من عائد الأرباح من إنتاج الجماعة ككل. فأحياناً يعتقد الكثيرون أن الدخول في شركة ليس ضماناً لدخل مرتفع، فقد يتحمل نتيجة لذلك عبء مكان

عمله كاملاً مكان المتهربين من العمل، ويبذل جهداً أكبر من الذي كان سيبدله لو أنفرد بعمل مستقل، ولذلك نجد في كثير من المجتمعات الفقيرة النزوع للعمل الفردي وقلّة الرغبة للتوحد والعمل الجماعي والسعي للابتكار ضمن مجموعات تختلف نوعياً لأنه في رأيهم يصب في مصلحة غيرهم الذين يزدادون ثراءً بينما يزداد الفقراء فقراً.